حول مجموعة « رحيل المرافيء القديمة »

غادة السمّان وجراح حزيران ...

بقلم عايدة مطرجي ادريس

فرأت هذا الشهر مخطوطة القصص التي تؤلف مجموعة غـــادة السمان الجديدة « رحيل المرافيء القديمة » .

ولست أبالغ حين اقول ان هذه المجموعة تعبر اعمق تعبير عـــن جراح حزيران في نفس الانسان العربي الجديد وفي روحه . فـــاذا أضفنا الى هذه الميزة ـ المرتبطة بالموضوع ـ ميزة نضج الوسيلـــة الفنية للتعبير ـ وهي المرتبطة بالشكل ـ وجدنا ان قصص غادة السمان تستحق دراسة مستفيضة حين ننظر في تقييم الادب القصصي العربي الحـديث .

غير انني أفضل ، فيما يلي ، ان أقصر دراستي على قصة واحدة من قصص هذه المجموعة ، معتبرة اياها نموذجا لقصص غادة السمان قد يغني تحليلها عن تحليل سائر القصص ، موضوعا وشكلا . وهـي القصة الاولى في المجموعة : « الدانوب الرمادي » .

وانني ابدأ بتصنيف هـــذه القصة كواحدة من أجمـل القصص « الحزيرانية » واكثرها عمقا وتعبيرا عن المأساة والتغلب عليها وفتح نوافذ للامل والخلاص .

وجمال هذه القصة لا يقوم على الموضوع ذاك . ان الموضوع مألوف وقد سبق ان تطرق له العديد من كتاب القصة العرب : ذيول مأســاة الانسان العربي بعد الخامس من حزيران . وانما يقوم على الطريقـــة التي تناولت الكاتبة بها هذه المأساة . فانتقاء الشخصيات ، وعلاقتهم، وتحركهم ، والرموز التي يعبرون عنها ، والتلاعب بهـم في مراحـل متعددة ، في ازمان متداخلة ، عبر امكنة مختلفة ، كل ذلك يعطي القصة نكهة الجدة والفرادة . يضاف الى ذلك متانة البناء القصصي وجمـال الاسلوب واناقته وحرارة التعبير والتجسيد .

ولكي نقف على جمال هذه القصة لا بد من ان نشرحها لتفكيـك بنائها وتحليل شخصيتها . اول هذه الشخصيات ، مدى ، فتاة عربية موظفة في احدى الاذاعات نصوتها الجميل . يدور في فلكها ثلاثة ابطال، حازم ، والاخرس ، وفواز ، يرتبط كل واحد بها وفق الازمان والمراحل النفسية التي تمر بها .

ثلاثة ازمان تتصارع في هذه القصة : الماضي ، ويقسم بـــدوره الى ماض سحيق ، وقريب ، وآني ، والحاضر الذي يقسم بدوره الى حاضر آني ، وقريب ، وماض ، ثم استشراف لمستقبل يبزغ كالرؤيـــا خلال تطور القصة .

في هذا التلاعب بالازمان نكتشف براعة المؤلفة في تحريك ابطالها الذين يتحددون وفق هذه الازمان فتطابق نفسياتهم المراحل الثلاث التي تمر بها البطلة : حازم وهو الماضي ، او زمن الخضوع والهزيمـــة ، والاخرس ، وهو الحاضر ، او زمن التخدير والنسيان والتمرد، وفواز، او الماضي السحيق الذي يطفو شبحه عبر الحاضر ويحدد المستقبل. هناك شخصيات أخرى تطل ، ولكنها باهتة ، اذا استثنينا الاب، صوت الماضي العربي ، يرف كالصدى ليحدد طريق الخلاص ، والاخ ، رمـز الشعب البريء المندفع ، المخلص والمضلل .

لا بد ، ونحن نشير الى هذا التقسيم للازمان ، من ان نذكر ان الكاتبة لم تعمد الى هذا التقسيم وفق التسلسل الزمني الممتد مـن الماضي الى الحاضر فالمستقبل ،وانما استطاعت ، بضربة معلم متمرس بهذا الفن ، ان تمزج هذه الازمنة وتجعلها متداخلة فيما بينها ، مـن خلال لحظة نفسية معينة ارتدت فيها ، عبر الذكريات الى ماضيهـــا فحاضرهـــا .

بطلة هذه القصة مدى ، هي اذن اقوى شخصيات القصة واكثرها غنى لما تحمل من رموز تتجسد في المراحل الثلاث التي تمر بها . انها تكشف عن ثقافة المؤلفة الفكرية التي استغلت فنيا استغلالا جيـدا . ان مدى ، صاحبة الاوتار الصوتية الجميلة ، الناطقة بالالفاظ الرنانة هي رمز الجعجعة الفارغة ، كما هي رمز للفتاة العربية المحرومة التـي تكفيها علاقتها بالرجال لتمديد كل افق في حياتها . وهي ايضا رمـز لتلك الامة التي انتهك عرضها فمنحت نفسها لكل الرجال وراحت في غمرة حزنها تتخبط وتنشد ، لا تدري كيف ، النسيان والحذر .

حبيبها في تلك المرحلة من حياتها ينسجم مع استعداداتها النفسية. والعلاقة بينهما علاقة رضى واستسلام . واذا تتبعنا دراسة نفسيـة مدى وعلاقتها برجالها الثلاثة ، لاحظنا ان المؤلفة تعير الناحيـــة البسيكولوجية في تصوير ابطالها اهتماما خاصا . ان مدى موظفـة، تحب حازم ، رمز السلطة ، وما تمثله تلك السلطة في ذهن العربـــي الرجعي : تسلط الحبيب الذكر على انثاه ، تسلط الحاكم على رعيته. والعلاقة في كلتا الحالتين قائمة على هيمنة القوي على الضعيف .ان حازم لا يرى في مدى اكثر من اداة للتنفيذ ، ساعة العمل ، اي فـي الساعات التي يرتدي وجهه قناع اللامعرفة بها . فهو المدير ، الوجـه الصارم رمز النفاق . اما في الليل ، فيكشف عن حقيقته ، فهـــو العشيق يلقي بثقله على الجسد الفني فيغمرها بالجنس على انغـــام الدانوب الازرق .

ثم يحدث الشرخ . فتزلزل الهزيمة الارض والنفس ، ومن هذا التصدع تنبثق اولى شرارات الوعي . هنا ، تتهيأ مدى للانتقال الى مرحلة جديدة . ان التطابق او الكثافة اصبحت مستحيلة .وتكتشف تفاهة العلاقة بينها وبين حازم ، علاقة السيد باشيائه : فهو يرفض ان تتمرد أو تثور أو تعي . واذ تنفصم تلك العلاقة ، يبدء الوعي، تعقد مدى علاقة اخرى جديدة بينها وبين الجمهور المستمع اليها . فكما كان جسد حازم يشكل حاجزا بينها وبين الوعي ، كذلك كان الحاجز الزجاجي للاستديو يحجز ضميرها عن مستمعيها . وحين حدث الشرخ، بدا لها حازم بكل ما في نفسه من نذالة واغتصاب . هنا يتوحد الرمز . هي والارض والشعب . وتسقط الحواجز فاذا الشعب الغاضب برك من الدماء يغمرها ويطمس رؤية الحروف عن عينيها ، واذا صوته الهادر يطغى على صوتها ويخنقه ، واذا الرعب يستولي عليها فتصرخ. وبصرختها يتحدد اول معالم الاحتجاج ، في الطريق الى الثورة .

ماذا كانت نتيجة تلك العلاقة اللاشرعية المعقودة في الظلام بينها وبين حازم ؟ كانت ثمرة هذه الاحلام الكاذبة حملا في احشائها ، عارا في جسدها ، كعار الهزيمة في نفسها ، ولا فرق بين العارين. وتحس مدى بانحصار ، وبالوحدة ، وبالتخلي . لقد فقدت كل شيء: الاب ، والاخ والحبيب والعمل . كل هذه العناصر تضافرت لتخلق الحافز الذي دفعها للخروج من تلك المرحلة ، زمن العبث والتفاهة واللامسؤولية ، زمن الضياع .

وفي غمرة هذا الانغماس التسفيلي ، تظهر بوارق امل من هنا وهناك تشد بمدى للارتفاع بها من بؤرة القذارة تلك . صوت الاب، او صوت الماضي العريق الذي يتلخص بالدعوة الى حضارة انسانية ازدهرت في الماضي وينبغي لها ان تستمر . ذلك الصوت الذي يدعو مدى الى ان تستعيد صوتها ، اي نقاءها واصالتها . ولقد رسم لها الاب طريق الخلاص : الكتابة في القديم ، دعا الملاك جبريل النبي العربي الى القراءة ، فكانت الكلمة اول خطوة في الدعوة الى الخلاص ، وها هو التاريخ يعيد اليوم نفسه ، فيدعو مدى الى الكتابة . هكذا تبقى الكلمة ، بالرغم من كل ما لحق بها من تزييف ، قدر العربي الذي لا مفر له منه .

الى جانب صوت الاب ،تبرز شخصية فواز الثائر ، التجسيد العملي لصوت الاب يدعوها الى الفداء ، فالموت من اجل الارض او من اجل الكلمة سواء . في كل منهما معنى الاستشهاد . على ان مدى ، لم تكن مهيأة بعد نفسيا للانخراط في هذا العمل ، الذي يتطلب ذروة النضج الانساني . وان كانت متعاطفة بالنسبة لفواز ، كخطوة اولى في الطريق الطويل . تصوير بالغ الدقة والتفهم تتبعه المؤلفة في رسم شخصية مدى وتطويرها . فلكي تستجيب لنداء فواز ، ينبغي لها ان تتخلص من الجنين العار . واذ تتخلص من كمية الدم والانسجة في احشائها ، تجهض كل ما تختزن من حقد وغضب واحتقار ،وفي خلاصها من هذا العبء ، يكتمل الوعي لدى مدى وتتضح لها الامور :

الاغتصاب واحد ، لا فرق بين شرف الارض وشرف المراة . ولقد تم هذا الاغتصاب بالطريقة نفسها ، الاول تحت ستار الظلمة والجنس، والثاني تحت ستار الكذب والتضليل .

ويتعمق الوعي عند مدى بالقدر الذي تحس فيه بالتخلي والوحدة اذ ذاك تصبح قادرة على الرفض والتمرد والثورة . وتدخل المرحلة الثانية في مراحل تطورها .

فتاة جديدة هي ، تضرب بجميع القيم الماضية ، ولكن فيها من آثار الماضي التمزق والجرح ولعنة السقطة الاولى . ان النفس البشرية، ليست كصفحة ورقة مقوى ملساء تنزلق عليها المياه من دون ان تترك اثرا ، ان جرح مدى اعمق مما كانت تتصور . ولقد بدا لها ان لا سبيل لشفائه الا بالتخدير ، الا بالسفر والغربة والجنس . وعي لوضعها وسلبية في طريق الرفض والتمرد . تلك كانت سمة هذه المرحلة التي تنتمي الى الحاضر الماضي او الحاضر البعيد ، حتى اكتشفت جورجي، فاتخذته عشيقا ، ودخلت مرحلة الحاضر الآني او المعاش .

في هذه المرحلة ، ينتقل اطار القصة المكاني الى فينا ويحل جورجي مكان حازم .

جورجي رافص اخرس ، علاقة غريبة تعقدها معه مدى ، المذيعة السابقة ، فتضفي على القصة جوا متميزا مشحونا بالرمز . على ان هذه العلاقة نابعة من تطور شخصية مدى ومن طبيعة نفسيتها في تلك المرحلة : ان أول رد فعل للتمرد على تزييف الكلمات هو الرغبة في الصمت .

مع جورجي ، او زمن التمرد السلبي ، تكتشف مدى نفسها، تغور في اعماقها وفي اعماق الطبيعة ، فترتد الى جذور الانسانية الاولى ، الى عالم البراءة ، والاصوات المبهمة ، والاهواء في الغابات تصدرها الكائنات لحاجة بنفسها فتعلو من غير تزييف . مع جورجي تغور الكلمة في اعماقها ، وتموت الحاجة اليها . فالوسائل البدائية الجسدية كافية للتعبير والانسجام . كل ما في هذه الفترة بكر وصادق. صدق الرياح في الغابات انها تعيش بلا كلمات .

على ان هذا الدواء ما يلبث ان يعتاد عليه الجسم او تلفظه النفس لاستحالة الانسجام معه . فلئن كانت البدائية مغرية لمدى جورجي ، والبكارة في الغابات مريحة الى جانبه ، فان مدى ليست بدائية النفس والتفكير ، وليست بكر الجسد والنفس .

وتسير مدى في طريق اكتشاف ذاتها بذاتها : ان جورجي مخدر لا يمتاز عن سائر المخدرات التي تذوقتها الا بطرافته ، فما ان يبتعد عنها ، حتى يستيقظ لديها الوعي ، ومع الوعي الشعور بالوحدة والتخلي والقلق . صحيح انه كان وسيلة للهرب ، الا ان العلاقة بينهما علاقة مصطنعة ، مزيفة هي ايضا في آخر المطاف . ليس فيها اي تفاهم يرتفع الى مستوى الانسان ، وليس هناك اي رابط مشترك يجمعهما اذا استثنينا الجنس . على ان الجنس ، الذي مارسته مع حازم في الماضي ، كان أشد صدقا مما هو مع جورجي . مع حازم ، كان استجابة عفوية لرغبة الانثى المحرومة في بادىء الامر ، ثم سبيلا للخلاص من الهزيمة فيما بعد . اما الآن ، فالجنس هو للهروب ،للكذب على نفسها والتحايل على وعيها واسكات صوتها الحقيقي . ان الواقع يتضح امامها ويتميز ، ومع هذا الوضوح في الرؤية تتعمق المأساة وتبلغ القمة .

ما طريق الخلاص ؟

الابتعاد عن جورجي . السعي وحيدة في اكتشاف فيينا ودانوبها، آخر ذكرى لآخر نغم من انغام الماضي . الدانوب الحقيقي ، رمادي موحل ، كماضيها . ليس فيه زرقة الاحلام وضياؤها . ومراكب الغبطة والجمال . جورجي والدانوب والماضي عالم خلقه خيالها ، عالم مزيف . ويسقط جورجي ، ويسقط الدانوب ، كما سقط من قبل الحاجز الزجاجي لغرفة الاستديو . وتتراءى لها الحقيقة كما تراءت لها حقيقة الجماهير الغضبى في المرحلة الاولى ، حقيقة الاصالة في فيينا ، لئن سقط الدانوب ، فان اجواء فيينا ما تزال عامرة بالموسيقى تنتظر عبقريا جديدا يلتقط ذبذباتها . انها تعي فيينا ، ولشدة وعيها لها تسقط لتحل محلها دمشق : وتكتشف حقيقة اخرى : جميع وعيها لها تسقط لتحل محلها دمشق : وتكتشف حقيقة اخرى : جميع الرحلات التي قامت بها باطلة . باطل هو الجنس ، وباطلة كل محاولة للهروب ، ان فيينا ـ دمشق ـ بيروت غائرة في اعماقها ، لا سبيل لانتزاعها .

واذ تذكر بيروت ، يسطع وجه فواز كالرؤية : حول هذه الشخصية تتأرجح مدى كمحور يتجاذبه قطبان هما في الارجح قطب واحد يمتد كشعاع من النور ينبثق من الماضي ويغمر الحاضر وينطلق الى المستقبل.

يبدو فواز ، كذكرى : كرمز لعالم المثل التي تعمر احلامنا ويقتلنا الشوق لبلوغها والاتحاد بها لازالة الغش والزيف الذي لحق صورة

المثال . انه التحنين الى الاصالة ، الى ادراك الحقيقة المطلقة ،الحقيقة التي وجدت منذ الازل . صورة فواز ، مزيج انساني رائع ، فيه ما في الوجه الافلاطوني من اصالة ، وما في الطفولة من براءة وما في الرجولة من تصميم وعناء ، وما لدى المفكر او النبي من سمو وقابلية للفداء .

كيف استطاعت مدى ، ان تعقد صلة مع فواز ؟

في البدء ، في الماضي السحيق ، كانت علاقتهما علاقة صداقة واخوة . زميل اخيها هو ورفيق طفولتها . لعل الكاتبة ترمز ، بتلك العلاقة الطفولية ، الى وجود الخير لدى العربي ، تلك البذورالموجودة بالفعل ، وان كانت غافية او انها غفت طويلا ، لعدم توفر المناخ لتفتحها. على ان هذه البذور ، ما ان يتزلزل باطن الارض المدفونة في اعماقه حتى تتشقق ، فتغوص جذور لها في العمق بينما تتصاعد في الجو، شاقة بطن الارض ، نبتة نحيله خضراء تفتح صدرها للرياح والاعاصير والاهوال .

ولقد تعرضت مدى ، تلك النبتة الفتية ، لكثير من العواصف في حياتها فانتهكت وتشردت وتألمت حتى قاربت الجنون . ولولا تلك الجذور الضاربة عمقا وتشعبا التي كانت مترعة بالنسغ الحي كلما جفت فيها العروق وتساقطت عنها الاوراق لانهارت واقتلعت .

هذه الجذور ، هي فواز ، تجسيد للصوت الابوي ، قلبه قلب فواز ، عامر بالحب والحنان . في حناياه على مدى قلق وعطف واسى. انه ، بالرغم من تصريحه لها بان صوتها كان سببا في قتل اخيها وزملائه ، لم يحقد عليها . وبالرغم من حياة التشرد التي عاشتها فقد ظل يؤمن بها وبامكانية استرجاعها . « متى تعودين الينا ؟ » كان هذا آخر نداء سمعته منه . وفي هذا النداء يتردد صدى حب الاب للفتى الضائع والامل بعودته مهما طال الزمن .

وبالفعل ، منذ ان التقت مدى بفواز ، تصدعت علاقتها بحازم . وظلت في فترة التأرجح الممتدة بين علاقتها بحازم وتمردها عليه محور تصادم وتصارع بين قطبين ، كان فواز هو المنتصر ولكن بطريقةسلبية. كان انتزاعها من حازم النقطة الاولى التي يمكن تسجيلها فيتلكالفترة؟ وشخصية فواز نقيض صارخ لشخصية حازم . ومن هذا التضادانبثقت شرارات الوعي في نفس الفتاة . فبينما يعتمد حازم في علاقته على الجنس والتستر والاحتقار لمدى ، يعتمد فواز على الصداقة معها ومع جماعته ، على الحب الصريح وعلى الاجتماعات العلنيةبينهما وبينالرفاق وعلى الاحترام المتبادل . ان العلاقة الفردية المنحطة تنهزم امام الحب البريء الجماعي الهادف الى الاعتراف بحق الانسان بالحياة الكريمة، وتبدو مدى هنا رمزا لاشد بني الانسان مأساة وانتهاكا .

على ان فواز ، لا يريد انقاذ مدى بانتشالها قسرا ، لان هذا العمل يتضمن احتقارا لشخصيتها . انه يدعوها وعليها هي ان تلبي الدعوة حين تنضج وتصبح قادرة ذاتيا على الفداء . ان الكاتبة تلمح الى انتماء فواز الى الجماعة التي تعتبر الانطلاق من اديولوجية ثورية واضحة المنطلق ، صريحة الاهداف ، الاساس السليم للثورة . ان الثورة ليست تجميعا للافراد ، اي افراد ، وانما هي انصهار موحد لشخصيات ناضجة التفكير ، مؤمنة حتى الموت بالهدف .

واذا تابعنا تحليل شخصية فواز نرى انه يتقابل ايضا معجورجي. ذلك ان جورجي يلتقي مع حازم بطبيعته من حيث انه هو ايضا انتهى بان يكون مخدرا . فبينما يرمز جورجي الى الدعوة للنسيان والضياع، يبرز فواز نموذجا صحيا للعلاقات الانسانية . انه يؤنب مدى ويحبها، يعجب بها ويشفق عليها ، يخاف عليها ويكبر جرأتها ، تكتب هي ، ويجسد كلماتها رسوما : تفاهم وانسجام حب واحترام ، الطريقالى الاتحاد الحقيقي ، الى الحب الحقيقي ، الى الوحدة .

مع فواز ، تبلغ مدى ذروة النضج ، تصبح قادرة على تفهم كل كلمة من رسالته . لقد دفعت ضريبة الوعي : وحدة وآلاما . انها تفهم كيف سيترك فواز الرسم الى حين ليدفع بيده الظلم ، بطريقة اجدى واسرع . سيحمل البندقية ، لا ليزرع الموت ، بل ليقدس الحياة . مرغم هو على ترك فنه . وكهن مدى يجب ان تستمر في الكتابة ، ان الكاتبة بتلك الاشارة تؤكد ان البندقيه والفن سلاحان ضروريان للمعركه، يصبح كل منهما قدسيته عندما يلبي صاحبهما التوقيت الصح ،سيبدأ احدهما بالاخر . هذا التميز الدقيق تعيه مدى . وحين تنبعث اشلاء فواز ، تبقى يده ، الافق المشرق الوحيد في حياتها ، لن ذهبت اليد، يده ، فستبقى يدها ، توأم يده ، ولن يضمحل الصوت ولن يموت.

ان الرمز يتكشف هنا بصورة مدهشة وبعيدة الأغوار والمدلولات ليكون الهدف الرئيسي لهذه القصة . فمن المفروغ منه التأكيد انالكاتبه لا تبغي هنا الفن من اجل الفن . وانما القصة هي نموذج للادب الملتزم . انها تمجيد للفداء بشخص فواز ، باعتباره الحقيقه المطلقه في عالم التزييف ، وهي تمجيد لكلمة ورد اعتبار لها ، بعد ان اصبحت اداة هذا التزييف ، وهي صوت التاريخ ، حق هذه الامة في البقاء ، يردد ان لا حياة للعرب ان لم يرافقها الموت وهي نوافذ للامل في دنيا لفها اليأس حتى الجنون .

ان القصة هي هذه الرموز مجتمعة . لكن اليد ، تبدو البطلة الحقيقية : اليد التي فجرت الثورة ، واليد التي ستتابع بالكلمة تفجيرها . هذه هي الحقيقة التي اكتشفتها مدى أخيرا ، وهنا طريق خلاصها . لا الهروب ، ولا الغربة ولا التخدير الدواء الناجع لمرضها. شفاؤها ، مواجهه الواقع ، تشريحه ، وضع الاصبع على مكمنالداء منه واستئصال العلة منه ، شفاؤها العودة الى ارضها ، الى التربه التي ارتوت من دماء اخيها ومن روح فواز ، سوف تمتص منها النسغ الذي استغرق تكثيفه مئات السنين ، ستنقله بريئا صافيا ليمتصه جيلها وينقله بدوره . وهكذا تستمر تلك الدورة الابدية ، ولن تموت بالرغم من اليأس والانهيار . ستبقى تلك الاصابع الخمس ، رفيقتها في الدرب الشاق الذي لا نهاية له .وستظل الكلمة، رمزا لحضارةوانسانيه العرب .

ذاك هو قرار مدى . اتخذته عن وعي وادراك وتجربة .

قيمة هذه القصة ، بالرغم من الجو الكابوسي الذي يسيطر عليها ، انها ايجابية الهدف ، مفتوحة الافاق . وجمالها يكمن في هذه الطاقة من الغنى والعمق التي حملتها لمدى . انها شخصية تكشف عن خلقية ثقافية ادبية وفنية وسياسية واسعة عرفت الكاتبة ان تستغلها فنيا ، ببساطة ، في الظاهر ولكنها عميقة في ابعادها ومراميها وخلفياتها .

هذه الشخصيات ، نحسها تعيش عوالمها ، تتصارع فيما بينها ، وتكشف عن فهم واع وعميق لدى المؤلفة لمختلف الذبذبات النفسية ، وتحليل دقيق لتنوازع البشرية وقدرة في تتبعها وتصاعدها .

صحيح اننا نجد في شخصية مدى الكثير من ملامح البطلالوجودي في قلقه وتمزقه وتمرده ووعيه وثورته وتحديد لذاته وللعالم ، الا ان ذلك لا يخرج عن حدود التأثر ويكسب مدى عمقا في التفكير والتحليل واتخاذ المواقف . ولا يراود الناقد اي شك في ان مدى عربيةالملامح والهموم والاهداف . وهي قريبة الى ذواتنا الى حد نحس معه انها بعض منا ، وان ما عانته ليس الا انعكاسا لمأساتنا . وهكذا يكسبالقصة اهمية وثائقية كواحدة من النماذج التي تؤرخ آثر الهزيمة وهولها على صعيد الفرد العربي ، المثقف بنوع خاص . ويحضرني بهذه المناسبة وجهان ، عانيا مما عانته مدى ، وكانت الهزيمة سببا من اسباب غيابهما : سميرة عزام ورئيف خوري .

هذه هي قيمة القصة من حيث المضمون ، وقيمتها من حيث الشكل لا تقل عن ذلك . صحيح ان التكنيك ليس بالجديد ، فقد استعمله

كثير من كتاب القصة ، خاصة أتباع الطريقه التحليليه او البسيكولوجيه واسلوب تداعي الافكار بالتذكر عن طريق الحواس ، كالنغم او الرائحة او المشهد او اللمس ، مطروق منذ بروست في بحثه عن الزمن الضائع حتى جويس ، كما أن تداخل الازمان ، نتيجة طبيعية لهذا الاسلوب.

ولكن بالرغم من الطريقه التقليديه ، فان البناء يوحي في هـذه القصة بالجدة . ذلك أنه قائم على قد جسد الاحداث وتطورالشخصيات حتى ليخيل ان أي طريقة اخرى كانت ستبوء بالفشل لو استعملـت لتحليل نفسية مدى .

كما أنه ليس في هذا البناء اي تفكك او خلل . فهو ينطلق كالهرم من ارضية الهزيمة ، في نفس فتاة ، هي رمز للامة ، ويتصاعد ،عبر الاحداث والذكريات والآلام ليستحدد في نقطه النقاء هي قمة هذا الهرم ، ونتيجة حتمية لتلك الظروف . حتى الامل ، مبرر في النهاية .

ذلك ان قمة الهرم مشرعة نحو السماء ، لا يحددها اي افـق ، ما دام الهدف لم يدرك بعد . على أن هذه القصة مرتبطة الاوصـال بالقاعدة ، فاي تصدع في اساسها ، كفيل بان يزلزل البنيان . ولعـل هذا التشخيص ، يفسر في نهايه القصة ، ارتياح مدى النفس بالرغم من رؤيتها جسد فواز المزق . أن رد الفعل النماذج الذي كـان من الممكن أن يراودنا للوهلة الاولى هو ان نرى مدى نبكي وتسقط نهائيـا في اليأس . ولكن نصرف مدى كان عكس ذلك : كان تصرفا طبيعيـا ومنطقيا لتطورها وتطور بنيان القصة . لقد اخفت برك الدماءالمنطلقة من عيون الجماهير والتي كانت سببا في ازمتها . ذلك ان البنيانرسا على قواعد صحيحة ، قواعد الفداء في الجسد والصوت والكلمـة. كذلك فان طريقه الاسقاط النفسي التي اعتمدت عليها الكاتبة ليسـت جديدة . فقد لجأ اليها الكتاب من قبل كاطار لافكارهم ومحتوى لحالاتهم النفسية . ولكنها تبدو هنا عضوية بالنسبة للبنيان . ان فيبينا العتيقة التي ترمم هي صورة عاكسة لنفسيتها التي تحاول ان تشفيها بالنسيان. وجو فيبينا ، مقامرها ، المرايا التي تعكس الاف الوجوه المتناثـرة ، انعكاس لنفسيتها المريضة ، او هي تراها كذلك من خلال ذاتهـا . والدانوب الموحل ، مثال لسقوط عالم احلامها ، وقوارب التجـارة والنفايات ، رمز لاغتيال العالم لها . ان انهيار العالم ، وانهيار الدانوب وانهيارها ، هذا الاسقاط النفسي ، جاء بمثابة ضرورة فنية لرسم الاطار الذي تتحرك فيه ، هذا الاطار الذي يصاعد جو المأساة ويؤزمـه حتى الجنون . وحين تستعيد أملها ، يعود الدانوب جميلا ازرق كاحلامها التي عزمت ان تحققها .

بالاضافة الى البناء المتين ، تبرز مزايا اخرى تساهم في جمـال هذه القصة . فالى جانب احساس الناقد بثقافة الكاتبة الفكـريـة وهضمها تلك الثقافة ، يحس ايضا بثقافتها الفنية وحسهـا المرهف بالجمال . انه يلمس ((القماش الفني)) في اللفظة المنتقاة والجملـة الموسيقية والخيال الخصب الموحي ، في الفكرة والصورة واللحن . ان الكلمة هذا الشيء الموات ، يصبح بين يديها مطواعا لتلبس اي حالة نفسية تريد التعبير عنها . فالاسلوب صاخب مزمجر حين يريد التعبير عن الغضب والحقد ، فاس يحز كالسكين حين يعبر عن الالم ، يوحـي بالغثيان في حالة الخدر والضياع ، رقيق عذب ينساب كموسيقـى الدانوب التي تسبح في اجوائها ، شاعري هادىء كحبها الطفولي البريء رصين صارم كمواقف الشجعان .

ويزيد في جمال هذا الأسلوب تلك اللحظات من التأمل الشاعري التي ترفرف على القصة . تلك اللحظات التي تضفي على القصص ذات الطابع التحليلي ذلك الغنى الانساني الذي يرفعها الى مستوى الفـن الحقيقي . تلك اللحظات نجدها في تصوير فظاعة الهزيمة في النفس البشرية ، اية نفس ، كما نجدها في حنين الانسان الى العـودة الى عالم البراءة والطهر في الغابات ،كما نجدها في عمق الخيبة امـام الدانوب الموحل ، كما نجدها في تأمل طبيعة فيبينا ثم في وقفـة استشراف دمشق من جبل قاسيون . ان الجو الشاعري ، المشحـون بالتأثر ، النابض ، الراعش ، يطغى علينا ، من أول القصة حتى آخرها ان الهزيمة رابضة على صدورنا ، واننا ، كبطلة هذه القصة ، نريد الوصول الى النقطة التي يسطع منها بريق الخلاص .

لقد تمكنت غادة السمان ان تخلق جوا ، ان تبتعث عالمـا ، فيه الكثير من معالم الواقع المعاش نحسه ونتعرف عليه ولكننا لا نتطابـق معه ، نجول فيه ، يدهشنا بالفه ، ببصماتنا عليه ، ويصدمنا بغرابته بهذا الخيال الخصب الذي جمع من شتيت الاحداث العادية وحـدة في الرؤيا ورفع واقعنا الاسن من بؤرته تيشارف الحلـم والشعـر وامل البقاء .

تبقى بعض المآخذ التي كان من الممكن استدراكها .

ذلك انها لا تتعلق بجوهر القصة من حيث التأليف والرؤية . ان بعض التشطيب والحذف يفي بالغرض . أول هذه المآخذ الاستغـراق في التحليل ، ان في العواطف ، او في الشرح اللفظي . وهذا يقضي على عنصر الغموض المستحب . صحيح أن طبيعة القصص البسيكولوجية تستدعي التحليل ، ولكن الاغراق فيه يفضي الى الشرح ، ويحـرم القارىء متعة الاكتشاف والتأويل . ان القارىء مثلا ، قادر ، مـن خلال تصوير نفسية حازم أن يستنتج انه رمز السلطة . ولـم تكـن الكاتبة بحاجة الى تأكيد ذلك وترديده في اكثر من موضع . كمـا انه قادر على تفهم الغرابة في علاقة مدى بجورجي الاخرس . ولم تكـن بحاجة ايضا الى تبرير تلك العلاقة وشرح اسبابها . ان الابطـال يعيشون في هذه القصة ويتطورون ولم يكونوا بحاجة الى تدخل المؤلفة من حين الى اخر : كما ان هناك ترديدا لوصف اكثر من حالة نفسيـة لم تكن الضرورة الفنية هي التي تمليه . ولولا قدرة المؤلفة علـى احتباس انفاس القارىء لفتحت هذه الثغرات مجالات للملل كـانت بغنى عنهـا .

يضاف الى ذلك بعض الاستطرادات ، من مثل التعليقاتالسياسية على الاحداث ، جاءت حشوا ، وكادت تقطع او قطعت شحنة التوثب الفني في اكثر من موضع .

ولكن ، بالرغم من هذه الملاحظات ، تبقى هذه القصة ، ان في غنى شخصياتها او في بنائها او في اسلوبها او في طرافتها احدى اجمـل القصص التي كتبت مؤرخة هزيمة حزيران ومبشرة بميلاد حركة فدائية صحية منقـذة .

عايدة مطرجي ادريس

مكتبـه النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى

دور النشر اللبنانية والعربيـة في

القطر السوري .